التاريخ الإسلامي

المعروف باسم

التاريخ المظفري

للقاضي شهاب الدين ابراهيم بن ابي الدم الحموي (ت ٦٤٢ هـ)

(من البعثة النبوية الى نهاية الأموية)

قام بتحقيقه وقدم له ووضع حواشيه

دكتور

حامد زيان غانم زيان

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

١٩٨٩

دار الثقافة للنشر والتوزيع

٤ شارع سيف الدين المهراني ـ القاهرة

ت / ٩٠٤٦٩٦

التاريخ الإسلامي

المعروف باسم

التاريخ المظفري

للقاضي شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم التموي (ت ٦٤٢ هـ)

(من البعثة النبوية الى نهاية الأموية)

قام بتحقيقه وقدم له ووضع حواشيه

دكتور

حامد زيان غانم زيان

استاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

١٩٨٩

دار الثقافة للنشر والتوزيع

٤ شارع سيف الدين ابراهيم ـ القاهرة

ت / ٩٠٤٦٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة المحقق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وبعد •

ذخر تراثنا الاسلامى بالعديد من الأعمال العلمية فى مختلف الفنون والعلوم ، ويأتى التاريخ فى مقدمة تلك الأعمال • واذا كان المستشرقون قد سبقوا فى العمل على نشر هذا التراث ، فان فريقاً من الباحثين المسلمين والعرب أخذوا كذلك فى الاهتمام بذلك التراث ، وعلى مر السنوات تم تحقيق ونشر عدد وفير من ذلك الانتاج العلمى • وعلى الرغم من ذلك فان العديد من أعمال المسلمين العلمية الجليلة ما زالت حتى اليوم مخطوطة ، وما زال العديد من تلك الذخائر ينتظر النشر والتحقيق • ونظراً لأهمية نشر ذلك التراث أقامت فى الآونة الأخيرة كثيرا من الدول ــ مشكورة ــ دوراً لنشر وتحقيق ذلك التراث ، وأقامت البعض منها وزارات خاصة بذلك •

واليوم نقدم للقارىء الكريم أحد هذه الذخائر وهو الكتاب المعروف باسم « التاريخ المظفرى » ، ومؤلفه هو القاضى شهاب الدين ابراهيم ابن عبد الله بن عبد المنعم بن على بن محمد الشافعى المعروف بابن ابى الدم الحموى •

ولد القاضى شهاب الدين ابراهيم بحماه فى الحادى والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، ونشأ وتربى بحماه مسقط رأسه التى كان يتولى حكمها آنذاك الملك المظفر الأول تقى الدين

عمر بن شاهان شاه بن أيوب (٥٧٤ ــ ٥٨٧ هـ / ١١٧٨ ــ ١١٩١ م)[١] . ونشأ شهاب الدين نشأة اسلامية حيث حفظ القرآن ونال قسطاً وفيراً من العلم ، ثم بدأ رحلته العلمية بالانتقال الى بغداد عاصمة الخلافة ومركز الحضارة حيث التقى بعدد كبير من العلماء والفقهاء وتتلمذ على أيديهم ، ثم انتقل الى القاهرة حيث واصل سماع الحديث والفقه [٢] ، الى أن أصبح من كبار علماء الشافعية أو على حد تعبير ابن العماد الحنبلى « اماماً فى مذهب الشافعى »[٣] .

ثم غادر القاضى شهاب الدين ابراهيم القاهرة الى حلب ، ليشارك فى الحياة العلمية بها ويتولى تدريس الحديث بمدارسها ، وأخذ يتنقل بعد ذلك بين العديد من مدن الشام ومدارسها . والحق أن القاضى شهاب الدين وصل فى تلك المرحلة الى درجة متقدمة فى علم الحديث أهلته لأن يحضر الى القاهرة ولكن فى هذه المرة ليس طالب علم كما حدث فى المرة السابقة ولكن استاذاً ومحدثاً [٤] . ومكث شهاب الدين بالقاهرة مدة،عاد بعدها الى مسقط رأسه حماه حيث ولاه حاكمها الملك المنصور

---

(١) عاصر القاضى شهاب الدين ابراهيم حكم اربعة ملوك من بنى ايوب لحماه كان اولهم الملك المظفر الأول المذكور ، ثم ابنه الملك المنصور الأول محمد (٥٨٧ ــ ٦١٧ هـ / ١١٩١ ــ ١٢٢٠ م) ، ثم ولده الملك الناصر قليج ارسلان (٦١٧ ــ ٦٢٦ هـ / ١٢٢٠ ــ ١٢٢٩ م) ، ثم أخيه الملك المظفر الثانى محمود (٦٢٦ ــ ٦٤٢ هـ / ١٢٢٩ ــ ١٢٤٤ م) .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ٤٧ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٢٢٣ .

ومن الجدير بالذكر أن ابن ابا الدم صنف كتابا بعنوان «ادب القضاء»، جمع فيه أحكام ادب القضاء فى المذهب الشافعى . راجع ابن ابى الدم : آدب القضاء ، تحقيق محمد بن مصطفى الزحيلى .

(٤) السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ٤٧ ، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٢٢٣ .

الأول محمد (٥٨٧ ــ ٦١٧ هـ / ١١٩١ ــ ١٢٢٠ م) منصب القضاء ، وظل بها ولم يفارقها الى أن توفى بها فى منتصف جمادى الآخرة عام (٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م)[٥] .

وقد شارك القاضى شهاب الدين ابراهيم مشاركة فعالة فى شتى النواحى السياسية والعلمية بحماه ، وقربه ملوكها اليهم واعتمدوا عليه كثيرا فى النواحى السياسية خاصة تلك السفارات التى أرسلت الى الحكام والملوك المعاصرين سواء كانوا من ملوك البيت الأيوبى أو الخلافة العباسية . وقد أشار الى ذلك المؤرخون المعاصرون لتلك الأحداث أمثال ابن واصل الذى كان فى صحبة القاضى شهاب الدين عندما أرسله الملك المظفر الثانى محمود عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م رسولا الى كل من الملك الصالح عماد الدين اسماعيل والملك الناصر والملك العادل وذلك فى سفارة ذات طابع سياسى دبلوماسى بقصد اخراج الملك الصالح نجم الدين أيوب من حبسه ومساعدته على قصد الديار المصرية[٦] والمعروف أن أحداث البيت الأيوبى كانت فى ذلك الحين متشابكة معقدة ، حيث كان الصالح نجم الدين أيوب محبوساً بالكرك فى حين أخذ الصراع أشده بين الناصر داوود والملك العادل ، أما الملك المظفر صاحب حماه فكان مؤيداً للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ويبدو أن الملك المظفر لم يجد من هو أهلا لهذه السفارة الهامة سوى القاضى شهاب الدين ابراهيم الذى نال احترام وتقدير ملوك بنى أيوب ، وقد كشف ابن واصل عن هذه الحقيقة أكثر من مرة وأشار الى أن سائر ملوم البيت الأيوبى قربوا اليهم القاضى

---

(٥) كان قد أرسله حاكم حماه رسولا الى بغداد عام ٦٤٢ هـ ، فمرض أثناء الطريق بالمعره ، فعاد الى حماه ومات بها .

راجع : ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٧٣ ، ابن الوردى : تتمه المختصر ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٦) عن هذه الاحداث راجع : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٥١ ــ ٢٥٣ .

شهاب الدين واكرموه [٧] . كذلك نال القاضى شهاب الدين احترام وتقدير الخلافة العباسية ، وكثيرا ما خلع عليه الخليفة العباسى الخلع السنية ، من ذلك ما حدث عام ٦٣١ هـ / ١٢٣٣م عندما كان القاضى شهاب الدين ابراهيم متوجهاً للحج بصحبة الحجاج العراقيين ثم تعرض لهم بعض قطاع الطرق مما دفع الحجيج الى العودة الى بغداد وبصحبتهم القاضى شهاب الدين ابراهيم ، فما كان من الخليفة العباسى المستنصر بالله (٦٢٣ — ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ — ١٢٤٢ م) الا أن قربه اليه وخلع عليه [٨] . ومما يدل على مكانة القاضى شهاب الدين ابراهيم أن الملك المظفر أرسله الى بغداد معزياً ومهنئاً عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م وتولية ابنه المستعصم بالله الخلافة ، وأرسل معه ثياباً طلساً برسم القبر ، والف دينار برسم الصدقة ، وقد حكى ابن واصل أنه صحب القاضى شهاب الدين ابراهيم فى هذه السفارة ، ولم يقتصر دور هذه السفارة على التهنئة والتعزية فقط ، وانما قامت بدور سياسى دبلوماسى أيضا حيث حمل القاضى شهاب الدين معه رسائل الى الملك السعيد نجم الدين غازى ابن الملك المنصور ارتق صاحب ماردين وكذلك الى السلطان الملك الناصر صاحب حلب والى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وقد أدى القاضى شهاب الدين ابراهيم مهمته على خير وجه ، ولعب دوراً ملحوظاً فى اعادة الوئام بين بدر الدين لؤلؤ والملك السعيد ، بعد أن أخذ الخلاف يدب بينهما [٩] .

* * *

ولا شك فى أن البيئة التى عاش فيها القاضى شهاب الدين ابراهيم كانت لها آثارها الواضحة على حياته ، فمن الناحية العلمية كان العصر

---

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٥٢ .
(٨) ابن واصل : المصدر السابق ج ٥ ص ٦٥ — ٦٦ .
(٩) ابن واصل : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

الذى عاش فيه القاضى شهاب الدين ابراهيم عصر ازدهار وانتعاش للحركة العلمية ، فقد أمتلأت بلاد الشام منذ أيام بنى زنكى بالمدارس ودور العلم ، وأوقف عليها ملوك البيت الزنكى الأوقاف الكثيرة للانفاق عليها (١٠) • وسار الأيوبيون على نهج بنى زنكى فى الاهتمام بالمدارس والتوسع فى انشائها ، كذلك كان للعلماء وضع خاص فى العصرين الزنكى والأيوبى ، حيث كان السلطان نور الدين محمود يجمعهم عنده للبحث والاستفادة من علمهم ، ويستقدمهم اليه من شتى البلاد (١١) ، وكان مع عظمته اذا دخل اليه الفقيه يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه أقرب الناس اليه • وقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبى على نفس خطوات نور الدين فى الاهتمام بالعلماء وتكريمهم ، وسار على نهجه بعد ذلك سائر حكام البيت الأيوبى •

ولا ريب فى أن هذا الاهتمام قد أدى الى انعاش الحركة العلمية فى الدولة الأيوبية على الرغم من أن العصر الأيوبى بصفة عامة كان عصراً حربياً ، شهد صراعاً مريراً ضد الصليبيين •

ولم تكن حماه وملوكها من بنى أيوب ببعيدين عن هذا النشاط العلمى ، فيشير أبو الفدا — وهو أحد ملوك حماه وعلمائها — الى أن الملك المنصور الأول محمد كان عالماً صنف عدة مصنفات مثل المضمار فى التاريخ ، وطبقات الشعراء ، وكان يحب العلماء ويجذل لهم العطاء ، وقد أدى هذا الى تشجيع العلماء فى الوفود الى حماه ، وتنافسهم على على خدمة الملك المنصور ، مما أدى الى انتعاش الحركة العلمية بحماه فى عصره •

---

(١٠) ابو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية جـ ١ ص ٥ ، وعن هذا الموضوع راجع : حامد زيان : حلب فى العصر الزنكى ص ١٩٤ — ٢٣١ •

(١١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ •

وقد عدد أبو الفدا عدد العلماء الذين كانوا بحماه فى عصره بقوله : « كان فى خدمته قريب من مائتى متعمم من النحاه والفقهاء والمشتغلين فى غير ذلك »[١٢] .

أما الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه (٦٢٦ — ٦٤٢ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٤٤ م) فكان كما وصفه ابن واصل « مع هيبته المفرطة حسن المجاورة طيب المفاكهة ، جميل العشرة لأصحابه وخواصه وكان له ميل الى من عنده فضل ومعرفة »[١٣] . ويفسر انا ما ذكره كل من أبى الفداء وابن واصل السر فى المكانة العالية التى نالها القاضى شهاب الدين عند ملوك حماه ، فالمعروف وكما سبق أن أسلفنا أن القاضى شهاب الدين بلغ درجة كبيرة فى التفقه فى مختلف العلوم مما جعل حكام حماه يعجبون به أشد أعجاب فقربوه اليهم . وقد نال القاضى شهاب الدين احترام وتقدير الملك المظفر تقى الدين محمود على وجه الخصوص واصبح ملازماً له طيلة حياته [١٤] . ومن طريف ما يذكر أن الملك المظفر تقى الدين محمود لم يقرب اليه الفقهاء والأدباء فقط ، وانما قرب اليه كذلك مجموعة من العلماء والمهندسين والرياضيين ، فهذا هو الشيخ علم الدين قيصر بن أبى القاسم المهندس المعروف بتعاسيف عالم الرياضيات يصل الى مكانة عالية فى دولة الملك المظفر وقربه اليه ، وولاه التدريس فى المدرسة الحنفية النورية بحماه وأغدق له العطاء . وتفانى الشيخ علم الدين قيصر فى خدمة الملك المظفر ، وصنع له كره من الخشب رسم فيها جميع الكواكب المرصودة فى السماء [١٥] ، كما بنى

---

(١٢) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(١٣) مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٣٤٤ .

(١٤) توفى الملك المظفر تقى الدين محمود يوم السبت الثامن من جمادى الاولى عام ٦٤٢ هـ بعد اصابته بحمى . (أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٣) .

(١٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٣٤٤ .

للملك المظفر ابراجاً بحماه وطاحوناً على نهر العاصى [١٦] . وكان الملك المظفر يتابع بنفسه الأعمال العلمية التى يقوم بها علم الدين قيصر ، وقد روى ابن واصل الذى كان ملازماً لعلم الدين قيصر ، روى كيف كان الملك المظفر مهتماً بذلك العمل وكان يتابعه « ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها » أى فى تلك الكره [١٧] . وكان لذلك المناخ العلمى والتشجيع الدائم الذى ناله علم الدين قيصر أثره فى انجازه الكثير من الأبحاث فى مختلف العلوم ، خاصة الرياضية منها [١٨] . كما كان له أثره فى ازدهار الحركة العلمية بحماه فى ذلك العصر .

أما الأحوال السياسية والعسكرية التى أحاطت بعصر القاضى شهاب الدين ابراهيم فتمثلت فى الآتى : أولا من الناحية السياسية خضعت حماه منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى لحكم الملك المظفر الأول تقى الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب [١٩] ، واستمر حكم حماه فى أعقاب الملك المظفر تقى الدين حتى أيام القاضى شهاب الدين ابراهيم حيث كان يتولى حكمها الملك المظفر تقى الدين محمود (الثانى) — كما سبق أن أوضحنا — ، وقد لعبت حماه مثلها مثل سائر أقاليم الشام وبلدانه دوراً فى مضمار الحروب الصليبية ، وان كانت قد أخذت أهميتها من انتماء حكامها الى ألقاب كبرى ، خاصة بعد وفاة صلاح الدين وظهور

---

(١٦) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٧٣ .

(١٧) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٣٤٤ .

(١٨) واشار ابن واصل الى أن الملك المظفر كان يسأل الشيخ علم الدين : اى شىء وصلت اليه من كتاب المجسطى والعلوم الرياضية ؟ راجع مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٤٤ .

(١٩) عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى بحكم حماه الى الملك المظفر تقى الدين عمر عام ٥٧٤ هـ بعد وفاة صاحبها شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين فى العام السابق (راجع ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ٦٠ — ٦١) .

الخلافات بين خلفائه ، فقد كان الملك المنصور الأول محمد منتمياً الى الملك العادل الكبير ، كما انتمى الملك المظفر تقى الدين محمود (الثانى) الى الملك الكامل محمد ، ثم الى ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعده [٢٠] . واذا كان حكام حماه قد جنوا من وراء هذه السياسة عدة مكاسب الا أن حماه تعرضت نتيجة هذه السياسة أيضاً لكثير من المشاكل ، خاصة تعرضها لاغارة الحلبيين ومحاولتهم الاستيلاء عليها بعد وفاة الكامل [٢١] .

ومن ناحية ثانية فان هذا العصر شهد تيار الحروب الصليبية الجارف الذى فتح القاضى شهاب الدين ابراهيم عينيه عليه ، فالمعروف أن شهاب الدين ولد عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وهو نفس العام الذى شهد موقعه حطين التى تمثل قمة الصراع العسكرى بين المسلمين والصليبيين ، والمعروف أيضاً أن هذه الموقعة لم تنه ذلك الصراع ، وانما كانت حلقة من حلقاته الطويلة التى استمرت قرابة قرنين من الزمان [٢٢] ، وابتلعت كل حياة القاضى شهاب الدين ، ومعنى ذلك أن القاضى شهاب الدين ولد ومات فى عصر الحروب الصليبية ، ولا شك فى أن ذلك العصر كانت له سماته الأدبية خاصة من حيث توجيه معظم الطاقات ان لم يكن كلها من أجل خدمة المعركة ضد الصليبيين [٢٣] .

---

(٢٠) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٣ — ١٤٤ .
وقد اتضح ذلك الانتماء عندما تولى الملك المظفر تقى الدين محمود حكم حماه وما حدث من احداث ، ثم ما تلى ذلك من زواج الملك المظفر من احدى بنات الكامل .

(٢١) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢٢) راجع كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٨٢ — ٨٨٨ .

(٢٣) راجع كتاب احمد احمد بدوى : الحياة الأدبية عصر الحروب الصليبية .

ومن ناحية ثالثة تأثرت منطقة الشام لضغوط قوة جديدة أخذت فى الظهور ببلاد الشام هذه القوة هى قوة الخوارزميين بزعامة جلال الدين خاصة بعد أن هدد المغول سلطانه واستولوا على أملاكه ، وقد اتسمت هجمات جلال الدين وأتباعه على بلاد الشام بالقسوة والوحشية ، وذكر عنه المؤرخون ، انه كان يفعل ما يفعلونه المغول من القتل والاسترقاق والنهب [٢٤] . مما أفزع بلدان الشام بأسرها ، ثم كان اتفاق جلال الدين مع الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ضد الملك الكامل ومن معه من ملوك البيت الأيوبى ، مؤدياً الى زيادة المخاوف من أخطار الخوارزمية خاصة حماه التى كانت تقف فى جانب الملك الكامل . واذا كان جلال الدين قد قتل عام ٦٢٨ م / ١٢٣٠ م [٢٥] ، الا أن أخطار الخوارزمية استمرت ببلاد الشام ، غير أن الوضع تغير بالنسبة لحاه خاصة بعد أن تولى حكم مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى اتفق مع الخوارزمية وجعلهم موالين له ــ وان لم يكن هذا الوفاق طوال عهد الصالح ــ فان الخوارزمية لم يتعرضوا لحماه التى كانت هى الأخرى من حلفاء الملك الصالح[٢٦] .

ومن ناحية رابعة فان أخبار المغول الذين زحفوا فى ذلك الوقت على املاك الدولة الخوازمية ، وأوقعوا الهزائم المتتالية بالسلطان علاء الدين محمد بن علاء الدين خوارزم شاه والذى انتهى أمره بالموت حزيناً على فقدان أملاكه عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م ، ولم يكتف المغول بذلك وانما واصلوا زحفهم على خوارزم وأنزلوا بأهلها أشد ألوان العذاب من قتل وسبى ، وخربوا مساجدها [٢٧] !! ثم واصلوا زحفهم على بقية أملاك

---

(٢٤) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٤٦ .

(٢٥) ابو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٧ ــ ١٥١ .

(٢٦) عن هذه الأحداث راجع : نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية ص ١٦٧ ــ ١٧٦ ، حامد زيان : العلماء بين الحرب والسياسة ص ٧٥ ــ ٧٧

(٢٧) ابو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٢٧ .

الخوارزميين وانزلوا الهزائم بجلال الدين بن علاء الدين الذى تولى حكم الدولة الخوارزمية بعد وفاة والده ، ولم يستطع جلال الدين الصمود فى وجه المغول • فاضطر الى الفرار من امامهم الى الهند بينما استولى المغـول على غزنه (عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) ثم عاد بعـد ذلك عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م لينقـل نشـاطه الى عـراق العجم ثم الى بلاد الشام [٢٨] ، فى حين استطاع المغول الاستيلاء على معظم أملاك الدولة الخوازرمية باذربيجان وتابعوا سيرهم الى أن وصلوا الفرات • وكان وصـول المغول الى الفرات وقيـامهم بالاغارة على ديار بكر والجزيرة وما أنزلوه بالبلاد من تدمير وتخريب مثيراً للاضطراب ببلاد الشام [٢٩] •

وأخيرا ساد أبناء البيت الأيوبى حكام مصر وبلاد الشام انقساماً كبيراً وصراعاً شديداً على السلطة ، أدى فى النهاية الى اضعافهم أمام اعدائهم سواء كانوا صليبيين أم خوارزمية أم مغول [٣٠] • وقد عاش القاضى شهاب الدين ابراهيم أثناء هذا الصراع ولمس بنفسه الانقسامات الكثيرة بين أبناء البيت الأيوبى •

وهكذا كان عصر صاحبنا القاضى شهاب الدين ابراهيم عصراً حافلا بالأحداث السياسية والعسكرية ، ولا شك فى أن كل هذه الأحداث قد انعكست على القاضى شهاب الدين أثناء تأليفه هذا الكتاب الذى قدمه هدية الى مليكه الملك المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه •

* * *

---

(٢٨) ابو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٣٤ — ١٣٥ ، نافع توفيق السبود : الدولة الخوارزمية ص ١٥٢ — ١٨٠ •

(٢٩) ابو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٤٧ •

(٣٠) عن هذا الموضوع راجع كتابنا : الصراع السياسى والعسكرى بين القوى الاسلامية •

وعلى الرغم من انغماس القاضى شهاب الدين فى مختلف شئون حماه السياسية ، الا أن ذلك لم يشغله عن الاهتمام بالنواحى العلمية ، فقد انكب صاحبنا طيلة حياته على العلم والدرس ، وصنف عدة مصنفات فى مختلف المجالات ، ففى الفقه له شرح الوسيط ، وفى الحديث له تدقيق العناية فى تحقيق الرواية ، وفى القضاء له أدب القضاء ، وفى المذاهب الاسلامية له الفرق الاسلامية ، أما فى التاريخ فله كتابان الأول كتاب كبير أسماه « التاريخ الكبير »[٣١] وكتابه الثانى ، هو الذى بين أيدينا الآن وهو عبارة عن مختصر فى التاريخ الاسلامى [٣٢] .

وقد ذكر القاضى شهاب الدين ابراهيم فى مقدمته لهذا المختصر الأسباب التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب بقوله : « وقد كنت فيما مضى من الزمن منشوقاً الى أن أخدم الجناب العالى الأعظم الأفخم السلطان الملكى المظفرى [٣٣] خلد الله سلطانه وأعظم شأنه بتصنيف كتاب أقص فيه ذكر النعم ، وأقيم به رسم الخدمة ، وأجتنى بما أتعاطاه ثمار القبول ، وأبلغ بتصنيفه غاية المأمول ، ثم جنحت الى التوانى دهراً للتخير فى تعيين العلم الذى أقصده بالتصنيف وتخصيص الفن الذى يقع موقع الرضى من الرأى الشريف ، الى أن حقق الله الأمل بسلطنته ،

---

(٣١) اشار السخاوى الى أن هذا الكتاب « على الحروف ابتداه بسيره نبوية ثم بالخلفاء ثم بالفقهاء ثم بالمتكلمين ثم بالمحدثين ثم بالزهاد ثم بالنحاة واللغويين والمفسرين والوزراء والمتقدمين ثم الشعراء كل هؤلاء من المحمدين ثم سرد الكاتب على الحروف مبتدئا بالصحابة ثم بالخلفاء على الترتيب المذكور وختم بالنساء فى كل حرف ، وسماه التاريخ المقفى » . وقد ذكر السخاوى أيضا انه قرأ هذا الكتاب . راجع : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٤٧.

(٣٢) اشار السخاوى كذلك الى هذا الكتاب حيث قال : « عنده — اى عند أحد معاصرى السخاوى — التاريخ الاخر » ، يقصد بذلك انه يمتلك نسخة من كتاب ابن ابى الدم . راجع : الاعلان بالتوبيخ ص ١٤٧ .

(٣٣) هو الملك المنظفر تقى الدين أبو الفتح محمود ابن الملك المنصور (٦٢٦ — ٦٤٢ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٤٤ م) .

وأعاد الحق الى نصابه بمملكته ، فوقع اختيارى على تأليف كتاب مختصر فى اتاريخ اطرزه بذكر دولته وتاريخ مملكته ونشر فضائله ... »[٣٤] .

ويتضح من تلك المقدمة أن القاضى شهاب الدين انما ألف هـذا الكتاب ليكون هدية للملك المظفر تقى الدين محمود .

أما المنهج أو الأسلوب الذى اتبعه القاضى شهاب الدين ابراهيم فى تأليف هذا الكتاب ، فقد وضحه فى مقدمته حيث قال : « وجعلته تاريخاً اسلامياً ابتدىء فيه بعون الله تعالى بذكر المصطفى محمد صلوات الله عليه واله وسلامه ، وذكر نسبه وسيرته من ابتداء نشوءه والى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم . ثم استاق بعد ذلك ذكر الخلفاء خليفة خليفة على سياق السنين الهجرية ، وأذكر فى ولاية كل خليفة من كان فى زمنه من العلمـاء والفضـلاء والمستحسن من أخبارهم وماجـرياتهم على سبيل الاختصار ، واختتم ذلك كله بذكر ولاية مولانا السلطان الملك المظفر أعز الله أنصاره ونصره ورفع فى الدنيا والآخرة قدره ليكون ختامه مسكاً »[٣٥] .

ويفهم من ذلك أن القاضى شهاب الدين ابراهيم قام بتأليف كتابه وفق أسلوب الحوليات مبتدئاً بذكر الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ثم من بعده ذكر الخلفاء وفق تسلسل السنوات ، الى أن وصل الى عهـد الملك المظفـر حيث ختم به كتـابه وبالتحـديد حتى عام ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م . واذا كان هذا الكتاب قد جاء وفق ما كتب من كتب تاريخية أخرى اتبعت نظام الحوليات ، الا أنه اختلف عنهم فى كثير من النواحى ، ويتضح لنا ذلك اذا عرضنا لبعض خصائصه وسماته وهى كمـا يلى :

---

(٣٤) راجع مقدمة الكتاب بعده .

(٣٥) راجع مقدمة الكتاب بعده .

أولا : هم قليل أولئك المؤرخين الذين تناولوا فترات طويلة من التاريخ الاسلامى بشكل مختصر • والمعروف أن معظم من كتب عن التاريخ الاسلامى جاءت كتاباتهم فى عشرات المجلدات حاوية الكثير من التفصيلات والاستطرادات التى تجلب على القارىء الملل والسأم ، أما القاضى شهاب الدين ابراهيم فقد جاء كتابه مختصراً فى التاريخ الاسلامى فى مجلد واحد وهو يشمل ما يحتاج القارىء اليه دون الدخول فى تفصيلات أو استطرادات •

ثانياً : ترك المؤلف الخوض فى تفصيل كثير من الأحداث التاريخية خاصة سير المعارك ووصف الجيوش واعدادها جانباً ، الا فى حالات قليلة وعندما اضطر الى ذكرها لاثبات صحة رأى معين ، وكثيراً ما أحال القارىء الى الوقوف على هذه التفصيلات فى كتابه « التاريخ الكبير » أو كتابه الآخر عن « الفرق الاسلامية » •

ثالثاً : اهتم القاضى شهاب الدين ابراهيم اهتماماً كبيراً بسير الخلفاء والملوك والقادة ، موضحاً كافة الجوانب الايجابية والسلبية فى سياستهم ، ويبدو أن المؤلف تعمد ذلك حتى تكتمل الفائدة من كتابه هذا الذى عزم على تقديمه هدية الملك المظفر ، وليجد فيه مليكه ما يستعين به من تجارب من سبقه من الملوك والحكام •

رابعاً : ركز المؤلف حديثه على الدور الذى قام به العلماء والفقهاء والقضاه داخل الدولة الاسلامية عبر العصور التاريخية المتعاقبة ، وكيف اهتم الخلفاء والملوك بحملة مشاعل العلم والحضارة • ويبدو أن القاضى شهاب الدين ابراهيم أراد أن يؤكد للملك المظفر وبطريقة عملية أن من أهم أسباب تقدم الدول هو الاهتمام بالعلم والعلماء •

خامساً : تضمن هذا المختصر بعض الطرائف المستحسنة التى ارتبطت بأسماء بعض الشعراء أو الظرفاء أو البخلاء وغيرهم ،

وذلك ليجلب السرور على قلب مليكه من ناحية ، ومن ناحية أخرى للعبرة والموعظة ، لأن كثيراً من تلك الطرائف قيلت وذكرت فى مناسبة معينة •

سادساً : ظهرت من خلال هـذا الكتاب ثقافة القاضى شهاب الدين ابراهيم ، وهو العالم الفقيه القاضى المؤرخ ، وأسلوبه فى الكتابة ، ومدى حفظه لكثير من الأحداث والأشـعار والأخبار • كذلك اتضح قدرة المؤلف على النقد السـليم ، والبراعة فى استخدام المصادر واستخلاص المـادة العلمية منها •

ويجرنا هـذا الأمر الأخير الى أن ننوه الى أن المؤلف لم يأخـذ مادته من المصـادر المختلفة دون تمحيص أو تدقيق وهو المعروف فى مصطلح علم الحديث باسـم « الجرح والتعديل » ، ولا ننسى أن القاضى شـهاب الدين ابراهيـم كان اماماً فى علم الحـديث[٣٦] • وقد أجرى المؤلف النقد على كافة الروايات التاريخية التى أوردها . وذكر أراءه بصراحة فى كثير من المواقف ، وانتقد كتابات بعض من سبقوه من المؤرخين وأتى بالدليل على صحة رأيه ، وكثيرا ما نجده يقول فى صراحة تامة بعد أن يذكر احـدى الروايات : « وهـذا غير صحيح » ، وهو أمر قلما نجده فى كتابات الكثير من المؤرخين السابقين عليـه أو المعاصرين له والذين اكتفوا فقط بالنقل عمن سبقوهم • وعلى سـبيل المثال لا الحصر عندما تحدث عن الخليفة عمر بن عبـد العزيز أورد ما ذكره ابن واضح اليعقوبى فى تاريخه حيث قال[٣٧] : نزل عمر بن عبـد العزيز وثلاثة من ولد سليمان فى القبر لدفن سليمان ، فلما تناولوه ليلحدوه تحرك على أيديهم ، فقال ولد سليمان : تحرك عاش أبونا ورب الكعبة • فقال عمر : بل عوجل أبوكم ورب الكعبة • وكان بعض من

---

(٣٦) عن ارتباط علم التاريخ بعلم الحديث عنده المسلمين راجع : سيده اسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الاسلامى ص ١٢ — ٣٧ .

(٣٧) راجع تاريخ ابن واضح ، جـ ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

يطعن على عمر من بنى أميه يقول : انه دفن سليمان حياً • وهنا لا يترك المؤلف هـذه الرواية تمر بدون تعليق وتوضيح الحقيقة وابداء رأيه فيها فيقول : قلت هـذا غير صحيح ، ومنزلة عمر رضى الله عنه من الدين والاسـلام أعظم من أن ينسب اليه شيء من هـذا ، ولا خلاف بين أهل العلم بهذا الشأن أن عمرا رضى الله عنه ولى الخلافـة على كراهة علمها الناس عنه[٣٨] • وهكذا يأتى القاضى شهاب الدين ابراهيم بالدليل على عدم صحة الرواية السـابقة والتى أوردها مؤرخ مثل ابن واضح اليعقوبى المعروف بميوله الشيعية • وهكذا يضعنا القاضى شهاب الدين ابراهيم أمام مؤرخا يكتب التاريخ وفق منهج علمى دقيق • وسيجد القارىء الكريم الأمثلة الكثيرة فى متن هـذا الكتاب التى تدل دلالة واضحة على ما وصل اليه القاضى شهاب الدين من نضج علمى ودقة فى تحليل الروايات •

* * *

أما عن المصـادر التى اعتمد عليها المؤلف فهى كثيرة ومتنوعة ، فقد اعتمد على مصادر خاصـة بالتاريخ وأخرى خاصـة بالطبقات وتراجم الأعلام والفقهاء والقضاة ، وثالثة خاصـة بالأدب شـعراً ونثرا • ويلاحظ أن قاضى شهاب الدين ابراهيم اعتمـد على بعض المصادر التى فقدت مما يزيد أهمية فى تاريخه ، ومن ناحية أخرى فان ما أورده المؤلف من أخبـار وأحداث للفترة الأخيرة التى عاصرها يعتبر مصدرا أصيلا لها •

وفى السطور التالية نتعرف على مصادر المؤلف ، علماً بأنه أشـار اليهـا صراحة فى متن كتابه ، مما يجعلنا فى غـير حاجة الى ذكر أماكن استخدامها •

---

(٣٨) راجع بعده احداث سنة ٩٩هـ (خلافة سليمان بن عبد الملك) .

الامام الحافظ محمد بن اسحاق أبو بكر المطلبى المدنى ، مصنف المغازى مولى قيس بن مخرمة بن المطلب ، رأى أنس بن مالك وحدث عن أبيه وعمه موسى ، وعدد كبير من العلماء ، وكان أحد أوعية العلم متبحرا فى معرفة المغازى والسير[٣٩] .

ولمحمد بن اسحاق عدة كتب من أهمها السيرة النبوية ، رواها عنه ابن هشـــام ، وكتاب الخلفاء ، وكتاب المبدأ . وقد اعتمد القاضى شهاب الدين ابراهيم فى تاريخه على كتاب الخلفاء اعتمادا كبيرا وروى عنـــه عـــدة روايات .

وقد طاف محمد بن اسحاق بعدد من بلدان الدولة الاســـلامية ، ومن بينها مصر وزار الاسكندرية ، ثم سكن بغـــداد وتوفى بها عام ١٥١هـ / ٧٦٨م . وقد تعرض محمد بن اسحاق كما تعرض غيره من العلماء لنقد مرير ، وقد أنصفه صاحب ميزان الاعتدال بقوله[٤٠] : « ونقده البعض ومدحه البعض ، فالذى يظهر لى أن ابن اسحاق حسن الحديث صالح الحال صدوق » .

أما محمد بن عمر بن واقد أبو عبد الله المدنى الواقدى المولود بالمدينة المنورة عام ١٣٠هـ / ٧٤٨هـ فى آخر خلافة مروان بن محمد ، وتلقى علمه عن عدد من كبار العلماء أمثال مالك بن أنس وغيره من العلماء ، وقد اهتم اهتماماً كبـيراً بالمغازى ، وتحـرى الدقة فى ذكر المواقع والأحداث ، وقد روى الخطيب البغدادى أن الواقدى كان يقول[٤١] : ما أدركت رجلا من أبناء الصـــحابة وأبناء الشـــهداء ولا مولى لهم الا وسألته : هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتـــل ؟

---

(٣٩) الذهبى : تذكرة الحفاظ ، جـ ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٤٠) الذهبى : جـ ٣ ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .

(٤١) تاريخ بغداد ، جـ ٣ ص ٣ .